

مشكلات الوضع الراهن للتنمية الريفية في مصر

دراسة نقدية

دكتور محمد صلاح بسيوني (م.د.)

مقدمة :

ان تطوير الريف المصرى تطويرا جذريا شاملا - اجتماعيا ، واقتصاديا ، وعمرانيا - لم يعد رفاهية فكرية أو شعارات سياسية . وانما أصبح واجبا مقدسا ومطلبا حضاريا ونحن على اعتاب القرن الواحد والعشرين . أن مشجب « المعركة العسكرية » الذى تراكمت فوقه كل مشكلات المجتمع المصرى قد توارى بعد اتفاقية السلام مع اسرائيل ، وهذه حقيقة يجب أن نستوعبها بشجاعة ونثيقظ لتحدياتها .

ومن ثم نصبح معركتنا ، هى المعركة ضد النخلف بكن صوره والوانه والتي تتجسد بشكل ملموس فى ريفنا العريض . وليكن معروفا دائما أن جذور التنمية القومية تبدأ عادة من تربة الريف المصرى ، وعليه لابد أن تعاد شمارها أو جانب معقول منها لاختصاص حياة هذا الريف واحداث نهضة حقيقية فى نظمه وقيمه وعلاقاته وانتاجه ، تتناسب طرديا مع محطيات العصر لكل من يسعى للاستفادة منها وتكييفها بما يتلائم مع ظروفه النوعية .

والبدايه دائما يتقدمها الحماس ، لكنه سرعان ما يفتر عند أول منعطف ويتلاشى مع اقرب تحد . وهذه للأسف كانت آفة التنمية فى دول لعالم الثالث ، فبعد المد الكبير لخطط وبرامج التنمية الطموحة فى الخمسينات والستينات بهذه البلدان ، احتواها الاتحصار فى السبعينات ، وشهدت هذه السنوات الأخيرة انعكاسات متتالية لكثير من تجارب التنمية فى هذه لبلدان . وتبع ذلك صحوة ونشاط ظاهران للخبراء والباحثين للتقويم هذا التذبذب فى منحنيات التنمية ، وكان فى مقدمة أسباب هذه الاخفاقات انخراط غالبية هذه الدول عشية استقلالها فى محاكاة الدول الغربية ، وتقليد نماذجها فى التنمية والتحديث Modernization ، وتورطها فى تبنى سياسات وايدولوجيات ليست نابعة من داخلها او متمشية مع ظروفها الثقافية والاقتصادية .

* مدرس علم الاجتماع بكلية الآداب - جامعة عين شمس .

وبالطبع فإننا لا يمكن أن نعفى من هذه المسؤولية مسفوة العسكرين ، والمتقنين بهذه البلاد المختلفة الذين تأثرت طموحاتهم وبرامجهم بتراث الفكر التنموي العربى ، ونظرياته .

وقضية التنمية الريفية لم تنفصل عن هذا الإطار الإجماعى والاقتصادى السياسى المتغير الذى اتسم بالديناميكية والتفاعل المتصل بين مختلف التيارات والاتجاهات والعوامل فى هذه البلدان ، ومصر واحدة من طلائعها ، ولذلك كانت حركة التنمية الريفية تتوقف أو تتعثر إذا اهتز هذا الإطار وانشغلت الدولة ببعض القضايا القومية الخارجية وما أكثرها . وهذا كانت التنمية الريفية — وما زالت متغيرا تابعا — وهذا المنظور التقليدى نحوها لابد أن يتغير .

وأما مسيرة التنمية الريفية فى مصر — وهى التى تعنيت فى هذا البحث — فقد كانت قريبة الشبه من هذا السياق العالمى ، ووجه الاختلاف الاساسى تمثل فى ذلك الايمان الراسخ بأن تنمية الريف المصرى هى المدخل الصحيح والفعال للتنمية القومية ، غير أن هذا الايمان لم يترجم الى استراتيجية طويلة النفس أو ايدىولوجية واضحة المعالم . وعلى الرغم من أن « برنامج العمل الوطنى » كان قد بدا فى صياغة هذه الاستراتيجية وتصويرها خطة مبدئية إلا أن انقضايا القومية المألحة قد حالت دون تنفيذ ذلك حتى وقتنا الحالى .

وفى تصورى أنه لابد من وقفة تحليلية ناقدة لتجارب التنمية الريفية فى مصر على مدى ربع القرن المنصرم ، ووضع حصاد هذه التجارب للاستفادة به ونحن نتهاى لمرحلة جديدة وحاسمة فى تاريخ مصر المعاصر . ولعل كشف سبببات مسيرتنا فى التنمية الريفية دون موارد هو بداية أساسية ومهمة مصروحه أمام الجميع من باحثين وخبراء وسياسيين على السواء .

ولا أزعم أن هذه الدراسة تستطيع الاحاطة بكل ذلك ولكنها فقط محاولة سبهد الطريق أمام تقويم الوضع الراهن للتنمية الريفية فى مصر ، والاشارة الى بعض سلبياتها ، وتصوير بعض البدائل والمتطلبات اللازمة لانطلاقة فعالة ، وتحقيق نهضة شاملة للريف المصرى دون تأخير أو ابطاء .

وأود أن أؤكد من جديد أن تنمية الريف سوف تتعثر — مهما خلصت النوايا — إذا لم نواجه مشكلاته المعقدة والتشعبة بأساليب علمية واضحة المعالم ، ومالم نتيقن أن ذلك يحتاج الى تغيير وتطوير جذرى : من طرق الزراعة ، وثقت الملكية ، وتجزؤ الحيازات ، وتخلف البنية الأساسية الريفية ، وسيطرة فئات وشرائح اجتماعية جديدة على مقدرات الريف . .

الخ . وكلها ظواهر سلبية نمسك الواحدة برقبة الاخرى ، وتتطلب مواجهة مخلصة ومثابرة اذا كانت هناك جدية نحو تنمية الريف المصرى .

وتشتمل هذه الدراسة على بحثين رئيسيين ، يحاول البحث الأول اعطاء خلفية مختصرة عن أهم الملامسات التاريخية والاجتماعية التى تكاثفت ضد تطوير الريف وتقدمه ، وعملت على تكريس تخطئه واستغلاله ، ثم الانتقال الى مرحلة جديدة بعد ثورة ١٩٥٢ ومحاولات تغيير الوضع المتردى للريف المصرى ، وبعد ذلك اشارة الى موقف الدراسات والبحوث الاجتماعية من الريف . ويتناول البحث الثانى بالتحليل الوضع الراهن للتنمية الريفية فى مصر ويتصدى لمناقشة أبرز السلبات التى ناهضت مشروعاتها وبرامجها خلال الفترة السابقة ، وما تمخض عنها من نتائج ومشكلات . وفى النهاية نضع بعض المؤشرات لاستراتيجية مستقبلية للتنمية الريفية فى مصر .

امسا عن المنهج فقد حاولنا استخدام منهاج متعدد المداخل interdisciplinary يأخذ فى الحسبان ذلك التداخل والترابط العضوى بين مختلف الظواهر والمتغيرات ، ولعل ذلك يتلاءم مع قضية متشعبة وعلى جانب كبير من الأهمية كقضية التنمية الريفية ، وقد دعمنا تحليلنا بالاحصاءات المتاحة كلما امكنا ذلك سعيا وراء تحقيق الدقة والموضوعية اللذين يفرضهما دائما الأسلوب العلمى فى البحث . ويجب أن اعترف أن الحيز المحدود لهذه الدراسة قد دمعنى للإيجاز الشديد فى مواضع مختلفة . ومن ثم فأننى آمل أن تكون هذه الدراسة فاتحة لدراسة أشمل فى المستقبل القريب باذن الله .